شذوذ المتنبي

بقلم الأستاذ محمود مصطفى
مدرس الأدب في كلية اللغة العربية بالازهر

— ١ —

الشذوذ هو الخروج عما ألف : من خلق ، أو عادة ، أو شكل فى صورة ، أو قول . هذا هو مصداقه فى جميع العلوم والفنون ، وهو بهذا الإطلاق يشمل الخروج مرضيا ومسخوطا ، ومقبولا ومرفوضا ؛ ولكن الاصطلاح يخصه بما ينبو عنه الطبع ، على حين يحبو الجانبَ الآخر بالألفاظ الجميلة ، فيقول الناس عن الرجل الذى يفوق الرجال : إنه نابغة ، وعبقرى ، ونسيج وحده . كما يقولون عن الخلق إذا ارتقى فى مدارج الكمال : إنه الكمال المطلق ، والشرف الباذخ .

بهذا اتضح مرادنا من « شذوذ المتنبي » فنحن نريد أن نحصى عليه بعض عيوبه ، وأن نعد عليه من ذنوبه : نريد أن نحاسبه . فهل يتفق هذا المنحى مع ماالدفع فيه أهل جيلنا من إطرائه إطراء لايشوبه تنقص ؟ هل يوافق هذا المنحى إحياء ذكرى المتنبي لمرور ألف عام على وفاته ؟

رأينا الناس فى مصر وغيرها قد طلعوا علينا بمجالس جلسوها ، ومحافل أقاموها ، وكتب أصدروها ، فى شأن المتنبي ؛ ولا تكاد تجد فيها إلا الإطراء والاندفاع فيه ، والتحبيذ والتقصى له : فالمتنبي شاعر العربية ، وهو شاعر الحكمة وشاعر النفس المتوثبة ، والهمة التى لا تعرف الانخذال ، بل هو شاعر الحياة ، هو الشاعر الخالد ، والشاعر الذى لم تلد الأجيال مثله . . .

قد تجتمع فى امرئ صفات من الكمال ، وقد تتعدد هذه الصفات تعددا ظاهرا ، ولكن الإنصاف والنقد الصحيح ، يوجبان على الناقد ألا يغفل المعايب

إذا هو استقرأ المحاسن ؛ فان فى فحوى عمله إشعارا بخلو ممدوحه من العيوب ، وهو أمر أجمع الناس على استحالته فيما خلا الله سبحانه وتعالى .

لقد هالنى أن رأيت معاصرىّ قد نسُوا أول شرط من شروط النقد ، وهو وزن الحسنات بالسيئات ، وهم حين كانوا ينقمون هذه الخصلة ، كانوا يلصقونها بالمتقدمين إلصاقا ، ويعلم الله أن المتقدمين يضربون لنا بحديثهم عن الرجال أرقى مثل للنقد ، وأشرف منزع له ؛ ولكننا نرميهم بدائنا الذى تجلى فى إحيائنا لذكرى المتنبى !

طغى على أفهامنا خطأ أن إحياء الذكرى بمثابة التأبين للميت ، أو التكريم للحى ، وأنه لا يجتمع فى الذوق أن يدفعنا الإعجاب بالرجل إلى إحياء ذكراه ، ثم نشوب ذلك بذكر مآخذ عليه . هذه هى الفكرة التى طغت على أدباء العصر فى هذه السنة التى استنّوها ، ولكنهم سجلوا فيها على أنفسهم عيبا لاصقا .

إن الذى أفهمه من إحياء الذكرى هو جملة معان تتسامى و تتلاحق فى نفس المحيين لهذه الذكرى : أولها الاعتراف بالوجود لهذا المحتفل به ، ثم الإحساس بأنه جدير أن يشغل الناس بالحديث عنه ؛ فحين نحتفل بالمتنبى اليوم بعد مرور ألف عام عليه ، نعترف بأن المتنبى كان من رجال العهد الماضى الجديرين بأن نحس بوجودهم ؛ فكم كان عصره يموج بالناس ، ويعج بالأحياء ؛ ولكن المتنبى من بينهم فى باب الشاعرية هو الذى استرعى أبصارنا . وشغل أفكارنا ، فنحن نخصه من بين عُشَرَائه وأهل زمانه بأن نفرده بالحديث . وهذا المعنى من التكريم سام تتطال إليه الأعناق فلا يناله إلا مثل المتنبى .

تكريم المتنبى قد تم فى عقد المجالس . وجمع المحافل ، وإصدار الأعداد الخاصة من المجلات فى الحديث عنه ؛ ولكن ذلك لا يمنع أن يكون ذلك الحديث جاريا على أصول النقد ، مستوفيا لشروطه .

إلى جانب هذه المعانى فى إحياء الذكرى ، معنى آخرُ أعوَدُ على المحتفلين بها : هو تصوير ما تهيأ لهم من أسباب الفهم والحكم ، والدلالة على ما وصلوا إليه فى مرتب الأدب من منزلة يغتبطون بها ، فهم يقولون لمن سيرى مجهودهم

فى تمحيص حياة المحتفل به : إننا قد وصلنا إلى هذا الحد من البحث والتنقيب واستشفاف الحقائق من وراء الحجب ، وإنطاق الآثار بما أضمر فيها أصحابها من معانٍ ودلالات ، يعرضون ذلك مُدلّين به ، وبما صار لهم من صبر فى البحث ونفاذ فى شعابه ، وهم إذا أرادوا أن يمثلوا عصرهم أتم تمثيل ، نَحَوْا جانبا أحكام السابقين وآراءهم فى أقوال المحتفل به ، ثم أقبلوا على هذه الأقوال يفهمونها بفكرهم الجديد ، واستعدادهم المهيّأ بغير وسائل القدماء ، فأبرزوا صورا من الفهم ، وجلّوا طرفا من الاستدلال ، وحكموا أحكاما أدّتهم إليها أسباب لم تتهيأ لغيرهم ؛ فتزيد بذلك ثروة الأدب ؛ ونجد عن المتنبي ـ مثلا ـ صورتين جليتين واضحتين : صورة انطبع فيها العصر القديم بماله وما عليه ؛ وصورة أظهرت عصرا يختلف عن القديم فى كثير من مظاهره ؛ ثم إذا جرى الخلف على سنة السلف ، وجاء عصر ممتاز عن عصرنا ، وصار لجيله فهم غير فهمنا وحكم غير حكمنا وكان له استقلال غير استقلالنا ـ رأينا صورة ثالثة ، ولا شك أن هذه ثروة تتضاعف للأدب فينمو على مر الأيام وبذل الجهود .

من أجل ذلك أردت أن أتناول من المتنبي ناحية لا ينكرها أحد ، ولا يستطيع أن يدفعها عن المتنبي متعصب له ، مهما بلغ به تعصبه ؛ تلك هى شذوذه ولم أرد أن أحده بقول أو فعل ، بل سأجعله عاما يتناول جميع حالاته . سأتناول شذوذ المتنبي : فى خلقه ، ورأيه ، وعبارته ، وما أدعى أنى بذلك سأخلق بحثا لم يتناوله الأقدمون ، ولكنى أرى أن الانصاف للتاريخ ولنفس المتنبي لا يكون إلا بجمع عيوبه إلى محاسنه ؛ ووزن فضائله بنقائصه .

أسباب الشذوذ فى المتنبي :

حياة المتنبي فى متناول كل أديب ليس فيما روى عنها بُعْد عن أىّ مطلّع ؛ لأن حياة المشهورين تبرز فى المتداول من الكتب ، وما كان فى زاوية منها بعيدة عن الأنظار حيناً ما ، قد أظهره تتبع الناس لأخبار هؤلاء المشهورين وتقصيهم لمجرى حياتهم ، فلنطمئن إلى أن كل ما يروى عن المتنبي من حياته وشعره ومأثور كلامه ، فى متناول كل يد الآن ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون

ذلك المروتى ليس بالمثابة التى تظهرنا على المتنبى طفلا وغلاما ويافعا ومراهقا ؛ كما أننا لا نطمع منها أن تبرز لنا بيته ونصيب أمه وأبيه من الذكاء وحالهما من الثروة ، وكيف تهيأت لهما تنشئته على ما يريدان له من الثقافة .

هذا السبب أو النقص فى حياة المتنبى ، ليس نقصا طارئا فى الأدب العربى خصت به حياة المتنبى مصادفة واتفاقا ؛ ولكنه شىء يعم الأكثرية من الذين يهمنا معرفة حياتهم بالتفصيل ؛ فأبو تمام ، والبحترى وغيرهما من شعراء وكتاب بل ملوك وسلاطين ، يعوزنا ما يحتاج إليه البحث الحديث من تفصيل لحياتهم الأولى ، أليس هذا الغموض هو الذى أساغ لبعض الحاقدين على المتنبى أن يدعى أن أباه كان سقاء ، وأنه انتقل به من الكوفة إلى الشام ؟

أو ليست هذه التهمة نفسها ، أو ذلك النبز بعينه ، هو الذى رمى به أبو تمام حين قالوا : إنه كان يسقى الماء بالجرة فى جامع عمرو بالفسطاط ؟ وإن فى اختيار سقاية الماء حرفة لكل مجهول الحرفة ، لمعنى يدل على أن هذا المدّعى حين أراد قبولا لدعواه ، واستساغة لتهمته ، التمس الحرفة الشائعة الكثيرة الرواية فى تلك العصور ، حين لم تكن وسيلة إلى الماء إلا تناوله من مجاريه بالقربة ، وتوزيعه بعد ذلك فى الأنحاء القريبة والبعيدة ؛ فلاشك أنها حرفة كثيرة المحترفين ، لايخلو منها بلد من بلاد الله إذ ذاك ، ولا بد أنها كانت من الكثرة والشيوع بحيث هانت وهان أصحابها على الناس ، فصارت دعواها مقبولة فى كل إنسان لا تعلم حرفته بالتحقيق . ثم حملت مع ذلك هذا النقص الذى جره شيوعها وكثرتها وهوانها على الناس . ومن هنا دخل الشاعر إلى هجاء أبى الطيب بقوله :

أى فضل لشاعر يطلب الفضـــل من الناس بُكرةً وعشيًا ؟
عاش حيناً يبيع بالكوفة المـا ء ، وحينـــا يبيع ماء المُحَيَّا !

من أجل هـذا الغموض فى حياة المتنبى الأولى لا نستطيع أن نستنبط أو نعلل ما صار إليه فى مستقبل أمره ، كما جرت عادة الباحثين فى أيامنا . ولو أن هذه الحياة كانت مبسوطة أمامنا ، ميسرة لنا نراها رأىَ العين ، ما استسغنا أيضا

أن نكون كهؤلاء الذين يؤمنون الإيمان كله بصلة النبوغ بها ، وانتماء الانغمار إليها ؛ لسنا من هؤلاء المؤمنين بتلك النظرية التى يبالغ أهل جيلنا فى تطبيقها . يقولون كما يقول بعض الأطباء : « قل لى ماذا تأكل ؛ أقل لك من أنت » فأدباؤنا يقولون : « قل لى ماذا قرأت ، وماذا حفظت ، ومن هم أستاذوك وخلطاؤك ؛ أقل لك من أنت »

قد يروعك من أصحاب هذا الرأى ضخامة الأساس الذى يبنون عليه حكمهم : « إن المرء صنيعة البيئة » وقول سبنسر : « كل شىء يصيب المادة يترك فيها أثرا لا يزول » فهم يفخمون فى مقدار استنباطهم على قدر ما لنظريتهم من ضخامة فى الصدق؛ فهناك الاستعداد ، والفطرة التى فطر الله الناس عليها . ولو بنينا أسباب النبوغ أو التخلف على الفطرة وحدها ، لكنا أقرب إلى الصواب ، لأن الاستعداد سبب أقرب من البيئة ، فمطاوعة النتائج له أقرب إلى العقل من مطاوعتها للبيئة .

وإنى لأذكر خطأ آخر وقع فيه الكيميائيون قديما ، فشقُوا وأشقوا الناس معهم ؛ هذا الخطأ مبنى على نظرية صادقة متينة الأساس ، واضحة النهج ؛ ولكن الصلة بينها وبين ما بنى عليها ينقصها شىء غاب عن أذهان المفكرين ، فضاع من أجله جهدهم ، وفنِىَ نشاطهم ومالُهم فى تحقيق هذا الاتصال ، الذى ظل تنقصه حلقة واحدة لو أنها وصلت بين طرفيه لا تصل تفكيرهم وتحقق حلمهم .

تلك هى نظرية الكيمياء الخيالية « كيمياء الذهب » التى زعموا فيها إمكان تحول بعض المعادن الدنيئة إلى معدن الذهب النفيس ، قالوا : إن كل معدن يتكون من ذرات مختلفة العناصر ، بنسب يترتب على اختلافها اختلاف تلك المعادن ، فالنحاس يتركب من ذرات إذا تغيرت نسبتها كان من نتائج ذلك تكون الذهب ، وهذه النظرية صادقة يؤيدها التحليل الحديث ، ولكن العقدة فى التحليل والتركيب ، فإذا تيسر لنا ذلك ، حصلنا على الذهب الوهاج ! ! وفى هذا التحليل والتركيب تحللت قوى القدماء ، وركبتهم الهموم التى اغتالت عقولهم ، واستنفدت مادتهم ؛ كذلك نحن فى وصل حياة الناس ببيئتهم ينقصنا اعتبار ذلك السر الذى بيد الله مفتاحه ؛ وهو الذكاء الموهوب الذى لا نصل إلى وزنه وبيان كمه وكيفه .

فمن نواحى نبوغه علو همته وطموح نفسه . وما يستنكر على أحد الهمة والطموح ، ولكن المستنكر فيها أن يحاول بهما امرؤ فى مثل نشأة المتنبى ووضاعة بيئته ، وصولا إلى الحكم والولاية لأمور الناس ، وذلك ما قاله المتحرجون من المبالغة أو تصديقها فى شأن المتنبى . ومهما يكن من تعدد الولايات فى أيامه ، أو تحققها لغير ذوى الأهلية لها ، فإننا نعد تطلع المتنبى لها شذوذاً أو خروجا على المألوف فى عرف الناس . نعم وثب خصى دَميتٌ أذنه فى يد النخاس ، وكان للفلسين أثر فى تقديره يوم بيع . ولكن بين موقف كافور فى يد النخاس ، وتربعه فى دست الملك حدثت أمور وجرت أقدار صار معها تحقق هذا الحلم أمرا جائزاً ، فكافور الخصى تنقل فى خدمة سيده الإخشيد وساعده ذكاؤه ونفاذه فى الإخلاص لسيده ، واطمئنان هذا السيد إلى جانبه ، وارتياحه إلى خضوعه - على أن سما قدره حالا على حال وطبقا عن طبق ، ولم يكن فى انتقاله فى تلك المراتب طفرة تستغرب ، حتى صار الخصى معلم ابن الاخشيد ، فوصيّه ، ولعله لم يُرَد لهذه الوصاية إلا حين أمن أولو الشأن جانبه ؛ فى غفلة هؤلاء واستنامتهم إليه ، استطاع أن يصبح بين يوم وليلة صاحب الأمر ، المستبد به دون سيده ؛ وقد دب استبداد كافور بالأمر دبيباً خفياً ، وسرى سريانا بطيئاً ، فكان كدبيب الغذاء فى الأعضاء ، أو دبيب الملال فى مستهامين إلى غاية من البغضاء . يدلك على ذلك أنك لم تجد نكيرا من أحد ، ولا ثورة من عامة ، ولا حركة من جيش ؛ فهما تصورنا المصريين نياما عن حقوقهم ، معطلين لأمر مملكتهم ، لم يفتنا أن لتناسب الحالات التى تنقل فيها كافور ، وانتهائها انتهاء طبيعياً أو كالطبيعى إلى توليه أمر البلاد - أثراً فى قبولهم لتلك النهاية التى ترى البون شاسعا بينها وبين بدايته

وينبغى أن نفهم أن قلب مملكة أو الوثوب إلى ولاية ليس أمرا سهلا ، بل هو من أصعب الأمور ، ويكفى أنه لا يتم إلا مصحوبا بالثورة والدم والهرج والمرج ، مهما تجمعت له أسباب ومكنت منه مؤهلات . وما نطيل بذكر ما يحتاج اليه هذا الأمر من عصبية تمتد إلى عهود سابقة وينضم اليها حقوق مهضومة فى

هذا التراث المطلوب ، حتى يكون للأعوان صلابة فى هذا الحق الذى يريدون ، ووجاهة فى دفع المغتصب الذى يزعمون .

أفلا يكون المتنبى بعد ذلك شاذاً فى طموحه ، خارجا عن مألوف الناس فى طلبه ، حين ظن أن الملك يستفاد بهذه الأزمة الرثة ، و يبنى على هذه الأسس الواهية ، و حين خيل له أن جماعة من أوشاب الناس وأفنائهم يهيج بهم الجوع فى الصحراء ، فيطمعهم المتنبى بالشبع فى ولايته ، فيخرج بهم من حدود صحرائهم ، وما هى إلا انتباهة من أمير حمص ، وثلة من جنوده المرابطين ، حتى يبذعر هذا الجمع ، ويقع المتنبى فى يد لؤلؤ ، فيكون منه البكاء والشكاية المرة والاعتذار الصبيانى حين يقول لهذا الأمير :

تُعَجِّلُ فِيَّ وُجُوبَ الحُدُودِ وَحَدِّى قُبَيْلَ وُجُوبِ السُّجُودِ

ومنها يتوجع من القيد و يذل بالاستعطاف :

أَمَالِكَ رِقِّى ، وَمَنْ شَأْنُهُ هِبَاتُ اللُّجَيْنِ وَعِتْقُ العَبِيدِ

دَعَوْتُكَ عند انقطاعِ الرَّجَا ءِ ، وَالمَوْتُ منى كحبلِ الوَرِيدِ

دَعَوْتُكَ لما بَرَانِى البِلَى وَأَوْهَنَ رِجْلَىَّ ثِقْلُ الحَدِيدِ

ولنقف وقفة قصيرة عند ذله هذا واعتذاره فنقول : إن طلب الملك غالبا يصحبه صلابة فى العود ، وشدة فى الشكيمة ، واستحصاد فى المرة ، يقوى أركانها فى النفس وجاهة الفكرة التى دفعت الثائر إلى ثورته ؛ حتى لا يكاد يعدل عن طلبه بين السيف والنطع . هذا شأن الثائرين الجادين الذين نابهم الحظ فى الوصول إلى ما يريدون ، ولم يختهم فى أنفسهم ، ولا فى إيمانهم بفكرتهم ، فبذلت لهم آمال دون آمالهم ، وسيقت إليهم رغائب بدل رغبتهم ؛ فلم يعدلوا عنها وآثروا أن يموتوا فى سبيلها .

هذا هو شأن الثورة فى طلب الملك إذا كانت مدعومة بالحق أو شبهه . وليس فى قصة المتنبى أمارة من ذلك . اذاً فقد كان المتنبى شاذا فى طلب الملك .

أما إذا سايرنا من يقول إنه ادعى النبوة وأتى الناس بقرآن يقول فيه . « والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار . امض على سننك ، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين . فان الله قامع بك زيغ من ألحد في الدين ، وضل عن السبيل » فأمر المتنبي في هذه الحال هين علينا ، لا نعيا بالتماس التوجيه لهذه النزعة ولا نحاول ربطها بالهمة أو الطموح : إذ أن كل ما يعد من باب الطموح فهو موصول بالعقل ، مؤيد بالفكرة ، وإن كان إلى حد بعيد ، وعلى جانب من التأييد واهٍ ضعيف . فأما دعوى النبوة - بعد ما كان من دخول الناس في دين الله ، وبعد ثلاثة قرون لا تزيد دين محمد إلا تأييداً وتمكينا - فإن شأن المتنبي يسهل علينا جدا ولا نجد مشقة في الحكم عليه . هو مجنون حتما إن كان قد صح منه هذا ، أما الذين اتبعوه - إن صح أن قد اتبعه أحد - فهؤلاء إنما اتبعوه للعبث به والسخرية منه وانتظار مصيره . وهم أول الأمر وآخره من أولئك الضلال ، الفارغي اليد من الأعمال ، الذين ربما طمعوا في أن يكون لهم معه غنم من سطو ، أو عدوان على سرب آمن .

ورأينا أن نستبعد على المتنبي هذه النزعة ، بل نقول : إن أعداءه صوروا شذوذه في طلب الولاية بهذه الصورة ، نكاية به أو التماسا لعذر أنفسهم إذا هموا بقتله أو قتل أتباعه ، ولكن شأن المتنبي وأتباعه كان أهون من كل ذلك .

***

ومما شذ فيه المتنبي ، كبره وتعاظمه ، وليس الكبر شذوذا دائما ، فإن من الناس من يحسن منهم ذلك ويكون مألوفا للناس منهم . بل منهم من لا يحسن به التواضع كما يحسن به الكبر . وهؤلاء هم الملوك الذين ارتفعوا فوق مراتب الناس ، وقد جرت العادة باحتجابهم وتركهم المشي في الأسواق ، وألف الناس منهم قلة القول وتجنب الهذر ، فلو أن أحدهم حضر الأسواق وابتذل نفسه في خلاط العامة لكان ذلك منه شذوذا ، كما يكون شذوذا من أمر الرجل من السوقة ، أن يتشبه بالملوك فيحتجب ويترفع عن أنداده أو من هم فوقه .

وإنما عددنا كبر المتنبي الذي أثر عنه شذوذا ، لأننا لا نجد له من حياته ومنزلته

بين الناس ما يبرره ، ويوجد للمتنبي شبهة فى التمسك به .

لم يكن المتنبي من الثراء بحيث لا يكون فى جلسائه أثرى منه ، ولم يكن من العلم بحيث لا يكون منهم من هو أعلم منه ، ولم يكن من الشاعرية بحيث تزل جميع الأقدام عن موقفه ، ولكنه كان متكبرا على كل جليس ، شامخا بأنفه على كل ذى جاه أو منزلة ، وقد يكون للمتنبي شبهة إذا تكبر على هؤلاء ، ولكن ما شبهته إذا تكبر على الملوك ؟ ما شبهته فى أن يخالف سنة الشعراء فى حضرة سيف الدولة ؟ فقد كانوا جميعا يقبلون البساط بين يديه و يقفون للإنشاد ، فأما المتنبي فلم يكن ينشده إلا جالسا وهو متقلد سيفه . وقد لاحظ ذلك بعض الحاضرين مرة حين كان المتنبي ينشد قصيدته :

لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ ما تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِى العِدَا

فقال : لو أنشدتها قائما لأسمعت الناس . فقال له أبو الطيب : أما سمعت أولها؟ يريد أن هذه عادته ، ولا سبيل إلى تغيير العادة ، فاستحسن هذا الجواب منه وعد من بدائعه .

ولنقف أمام هذه القصة فهى فى نظرنا ـ مضمومةً إلى غيرها ـ دليل تكبره لا كبره ، وآية تكلفه لا طبعه ، لو كان هذا طبع المتنبي للزمه فى حضرة كافور ، فقد كان يقف للإنشاد ، وما أذله إلا حرصه وطمعه أن ينال ولاية منه ، وإلا فقد كان سيف الدولة أولى بالهيبة ، لفحولته وعزة نفسه وشجاعته . فاذا كان المتنبي قد جرى على مألوف الناس حين أنشد كافورا وهو واقف ، فقد شذ عنه حين فعل ما كان يفعل بحضرة سيف الدولة . كذلك كان شاذا ، حين أبى مدح غير الملوك ، فلم يُصغِ لإلحاح أبى القاسم بن عباد ، حين ألح عليه فى زيارته وعاهده أن يشاطره ماله ، ولكن العظمة التى تخيلها المتنبي لنفسه جعلته يأنف من مدح ابن عباد . والشذوذ قد يحمل صاحبه على الامتناع من ورود الماء على شدة الظمأ ، فليس الكبر فى مثل هذه الأحوال كبرا ، ولكنه خطرات من الوساوس وخيال من الوهم ، يصور لصاحبه العظمة ، مصحوبة بركوب الرأس ، وتنكب الطريق .

وقد شذ المتنبي فى شجاعته ، والشذوذ فيها يسميه علماء الأخلاق تهورا ، وهو مذموم قدر امتداح الشجاعة ، وهو دليل على الرعونة إذا دلت الشجاعة على الوقار والثبات . شذ المتنبي فى شجاعته فيما نعلم شذوذين ، أحدهما حين ثبت مع سيف الدولة فى ستة من الجنود فتمكنوا من اختراق صفوف الأعداء والنجاة . هذا شذوذ إلى حد . شذوذ أدركته الروية آخر الأمر ، وإلا فقد كان ينتهى بالجنون إذا ثبت لهؤلاء الأعداء حتى يصيبه الردى . وما من العقل استدعاء الموت بمثل هذه المواقف . وقد يكون لسيف الدولة مبرر فى موقفه ؛ فهو صاحب الملك ، لا عار عليه أن يبذل فى سبيله نفسه ، لأن بالملك حياةَ نفسه ، فأما هذا الضيف الطارئ ، الذى يتمرس بمعاناة الحروب ويتفكه باللقاء ، فهو إذا حارب فلغير عداوة سابقة أو ثأر قديم ، وإنما يحارب مجاملة لصاحبه وإظهارا لقوة قلبه ، فموقفه تمثيل من أول خطواته إلى آخرها ، لذلك كان شذوذا من المتنبي غير مقبول أن يثبت وقد انهزم قواد الجيش وانحاز أبطاله .

أما ثانى الموقفين ، فهو موقفه حين عاد من فارس ، وحقائبه بُجُزٌ بالأموال ، التى أفادها من عضد الدولة وابن العميد ، وفى طريقه إلى الكوفة أعداء له ، أو أعراب أول صفاتهم قطع الطريق ، فلم يُصْغ إلى نصح الناصحين ، ولا استمع إلى إرشاد المرشدين ؛ بل نطق خَلْفاً من القول ، ودل على غرور مابعده من غرور ، حين قال وقد ذكر بأس بنى ضبة ، وعداوة فاتك بن أبى جهل منهم « لو أن مِخْصرتى هذه ملقاة على الفرات ، وبنو ضبة معطشون بخمس ، والماء يلمع كبطون الحيات ، ما جرؤ لهم ظِلفٌ ولا خُفٌ أن يَرِدَه » ثم سار على هداية هذه الضلالة من رأيه ، حتى لقى حتفه كما قدر النصحاء . وقد كان يقدر له الفرار فالنجاة . لولا ضلالة أخرى ، وخرق جديد عرض له ، أبى معه إلا أن يكون - من بين الشعراء - صادقا فيما يدعى ، حين هم بالفرار فذكره غلامه بقوله :

الخيلُ وَاللَّيلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

فثبت وقال : « قتلتنى . قتلك الله ! » وقاتل حتى قتل .

شذوذ المتنبي فى أقواله :

كلامنا فى هذا الشذوذ يتناول ثلاثة مناح : الفكرة ، اللفظ المفرد ، التركيب . ولسنا ندعى أن كل ما كان من شذوذ المتنبي فى هذه النواحى كان متكلفا متصنعا ومجتلبا اجتلابا ، بل نؤمن بأن بعض ذلك وقع منه بغير تعمد ، مثل انتحائه ناحية التقسيم المنطقى والتحديد الفلسفى بكلمة « أول ، والثانى » فى قوله :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ ، وَهِيَ المَحَلُّ الثَّانِي

أليست هذه لغة المنطق وتقسيم الفلسفة ، وهى لا شك رطانة فى الشعر ، إذا قيست إلى تلك الصياغة العربية ، التى صاغها البحترى فى ذات المعنى ، حين قال :

وَيَوَدُّ العَدُوُّ لو تُضْعِفُ الجَيْـــشَ عَلَيْهِمْ وَتَصْرِفُ الآرَاءَ

نعم هذا المعنى هو ذاك ، ولكن الشاعر المطبوع يأتى به نتيجة بلا مقدمات ، أما الشاعر المصنوع فانه يأتى به كما ترى محدودا بأول وآخر .

كذلك خذ مثلا تعليله فى قوله :

ولذا اسمُ أَعْطِيَةِ العُيُونِ جُفُونها من أَنها عَمَلَ السُّيُوفِ عَوَامِلُ

فهو يعلل باللام ، ثم بمن فى سياق سقيم ، لا تألف مثله فى شعر الشعراء ، أو خذ مثلا استعماله لمشتقات فعل الكون ، التى أكثر منها الفلاسفة وأهل المنطق ، كقوله :

إِنْ كان مِثْلُكَ كَانَ أو هُوَ كَائِنٌ فَبِرِئْتُ حينئذٍ مِنَ الإِسْلَامِ

لم تلفت الصاحبَ بن عباد فى البيت إلا كلمة حينئذ ، فقال : إنها هنا أنفر من عنز مُفلت ، وأنا موافقه فيما رأى ولكنى أقول : إن أس الثقل فى كلمتى كان وكائن .

هذا وأمثاله فى شعر المتنبي شذوذ غير مقصود ، لأن الرجل تأثر فيه بدراسة الفلسفة ، وترديد ألفاظها وأساليبها . ومهما يحاول المرء لعبارته الرقى فهو مأخوذ بأساليب لا يستطيع الخلاص منها ، لكثرة دورانها على لسانه وطروقها لسمعه .

أما الشذوذ المتعمل الذى كان يقصد به الإغراب ، ويروى فيه عن تلك الروح المتمردة على النظام ، النافرة من العادة ، فذلك كثير فى كلامه .

فمن ذلك استعماله الكلمات التى هى من التوغل فى الغرابة بحيث قل أن تجدها فى شعر جاهلى من شاعر معروف بعنجهيته ، وليس معقولا أن تكون هذه الكلمات وردت فى شعر المتنبى ، من فرط علمه باللغة وإحاطته بغريبها ومألوفها ، حتى اشتبها عليه واستويا فى نظره . ولكن الشذوذ هو الذى جعله يحرص على جمع تلك الكلمات وتفريقها فى شعره ، حتى يلتفت الناس إليه ، ويشغلوا به ، ومن ذلك كلمة ابتشاك بمعنى كذب فى قوله :

وَمَا أَرْضَى لِمُقْلَتِهِ بِحُلْمٍ إِذَا انتبهت تَوَهَّمَهُ ابْتِشَاكَا

قال الثعالبى : « لم أسمع فى هذا اللفظ شعرا قديما ولا محدثا سوى هذا البيت » ومن ذلك كلمة التوراب بمعنى التراب فى قوله :

أَيَفْطِمُهُ التَّوْرَابُ قَبْلَ فِطَامِهِ ويأكله قبلَ البلوغِ إلى الأكلِ ؟

قال الصاحب : « ومن أطم ما يتعاطاه ، التفاصحُ بالألفاظ النافرة ، والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء ، وغذىَ لبن ، لم يطأ الحضَر ، ولم يعرف المدر . فمن ذلك كلمة التوراب . وليس ذلك سائغا لمثله وهو وليد قرية ومعلم صبية » .

أريد أن أنبه الذين ظنوا أن مرجع غرابة المتنبى بدويته ونشأته ، فاندفعوا يحكمون أسباب الربط بين النشأة والمصير . أريد أن أنبههم إلى أن هذا إنما كان من المتنبى تكلفا ظاهرا ، حكم به قبلنا الذين عاشروه ، فلم يستسيغوا أن يكون علمه باللغة ، ونشأته بين أهلها داعية إلى ما كان منه من هذا الإغراب ، فالصاحب يقول فى مناسبة استعمال المتنبى لآخاء جمعا لأخ فى قوله :

كُلُّ آخائِهِ كرامُ بنى الدُّنْـــيَا وَلٰكِنَّهُ كريمُ الكرامِ[1]

(١) يلاحظ أن البيت ورد فى الديوان « كل آبائه » ولعل ما علق عليه الصاحب رواية أخرى للبيت

لو وقع الآخاء فى رائية الشماخ لاستثقل فكيف بأبيات منها :

قَدْ سَمِعْنَا ما قلتَ فى الأَحْلَام وَأَنَلْنَاكَ بَدْرَةً فى المنام

والكلام إذا لم يتناسب زَيْفته جهابذته وبَهْرَجته نقاده .

ومن شذوذه الذى عرف به أكثر مما عرف باستعمال الغريب ، ذلك التعقيد فى الأساليب ، والالتواء فى التعابير ، مما يسميه علماء البلاغة تعقيدا لفظيا ، إن كانت الجناية فيه على اللفظ ، ومعنويا إن كانت الجناية على المعنى . وهذا الشذوذ فى المتنبي ، لا يكاد ينكره معجب به ، متعصب له ، مهما احتال لذلك والتمس العلل بكبر عقله ودقة فهمه .

هذان النوعان من التعقيد ، عرفا فى العربية من شعراء عرفوا بالشذوذ ، وإن شذوذهم لا يقاس إلى شذوذ المتنبي . ألسنا نعثر بأمثلة من ذلك للفرزدق فى قوله :

وَمَا مِثْلُهُ فى الناس إلاَّ مُمَلَّكاً أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُه

وقوله :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ من مُحَارِبٍ أَبُوهُ ، وَلاَ كَانَتْ كليبٌ تُصَاهره

وقوله :

تَعَشَّ فإن عاهَدْتَنى لاَ تَخُونُنى نكن مثل من يا ذئبُ يَصْطَحِبَانِ

وما أدعى أنى استقصيت ما أثر عن الفرزدق من ذلك ؛ ولكنى لا أكاد أعد له غير ما ذكرت إلا بيتا أو بيتين ، والفرزدق معروف بالشذوذ كما قلنا ، أليس هو الذى أكثر من الغريب عامداً حتى قالوا : إنه « أحيا فى شعره ثلث العربية » ؟ أوليس هو الذى شذ فى سرقاته فكان يغتصب الشعر من قائله ويتهدده إذا ادعاه بعد ؟ أوليس هو الذى يقول فى ذلك : أحسن السرقات سرقة لا توجب حداً ؟ يريد سرقة الشعر واغتصابه .

ولسنا فى صدد الحديث عن الفرزدق حتى نعد نواحى شذوذه ؛ ولكنا نقول : إنه لما كان شاذا تجلى شذوذه فى تعقيده ، كذلك المتنبي شذ كثيراً ، فعقد كثيرا ،

وارتاح إلى حيرة الناس فى فهم شعره ، وكثرة سؤالهم له عن مراده ، ولم يستطع كتمان الغبطة بهذا ؛ فقال :

أَنَامُ مِلْءَ جُفُونى عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ القومُ جَرَّاها وَيَخْتَصِمُ

سيقول المحتجون للمتنبي ما شاءوا وشاءت لهم فلسفتهم ، سيقولون : إن هذا كان من المتنبي فرط ذكاء ، وفرط امتلاء بالمعانى ، وفرط حقد على الأيام ، وإنه شِنشِنة أخزم ، وجمجمة موتور ، ونفثة مصدور . ولكنْ ، بعضَ هذا أيها المعجبون ! وهوناً ما أيها المخدوعون بتمويه هذا الرجل وشعبذته ، فهذا الرجل كان يسهر فى تعويج هذا الكلام وتشويه هذا النظام ، حتى يلتوى على الناس فيسهروا من جرائه ، ويشقَوا ببدائه . وإلا فأى حال نفسية أو داع (مهما اشتد) يحمل قائلا على أن يقول :

أُحَادِ أَمْ سُدَاسٌ فى أُحَادِ لُيَلْتَنَا المنوطةُ بالتَّنَادِى ؟

فهو يتجاوز حدود اللغة ، فيستعمل صيغة أحاد وسداس الدالتين على توارد المعدود على العدد المصوغة منه ، فى معنى العدد ، فيريد من أحاد واحدة فقط ، ومن سداس ستة فقط ، وهو غير ما شرطوه فى استعمال هذه الصيغ ، ثم يحذف همزة الاستفهام الداخلة على أحاد ، وأصلها أأحاد ، وهو كما قالوا ضرورة ؛ ولكنها محتملة . ثم هو يريد من وراء كل هذا التعقيد أن هذه الليلة المتصلة بيوم القيامة تجمع ليالى الدهر كله ، وكل ليلة من ليالى الدهر : أهى واحدة أم ست ليالٍ فى كل ليلة ، فتكون الليلة سبع ليال أى أسبوعا .

وبعد ، فاسمع الجلبة التى أثارها المتنبي حول بيته : قال الصاحب بن عباد : وهذا من عنوان قصائده التى تحير الأفهام ، وتفوت الأوهام ، وتجمع من الحساب ما لا يدرك بالارتماطيق ، والأعداد الموضوعة للموسيقى . وقال الواحدى : وقد أكثروا فى معنى هذا البيت ثم لم يأتوا ببيان مفيد يوافق اللفظ . وإن حكيت ما قالوا فيه طال الكلام . وقال الشيخ ناصيف اليازجى شارح ديوانه : ولعمرى ليس مثل هذا مما يدخل فى فضيلة ناثر أو شاعر ، وإنما يصح التكلم به فى مقام

الإلغاز والتعمية ، لافى مقام المدح والتشبيه ، ثم هو - على مافيه من غموض المغزى وبعد التأويل - لايخرج عن تجشم عرَق القِربة فى استنباط الغرض من معنى قوله:

مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ لَيْلِى لاَ صَبَاحَ له كَأَنَّ أَوَّلَ يَوْمِ الْحَشْرِ آخِرُه

والفرق بين التعبيرين ظاهر .

وأى داع يدعو إلى كد الأذهان ، بَلْ إلى رَضِّ الأبدان فى فهم قوله :

وَكُلُّ شَرِيكٍ فى السُّرُورِ بِمُصْبَحِى أَرَى بَعْدَهُ من لاَ يَرَى مِثْلَهُ بَعْدِى

المصبح هنا مصدر ميمى بمعنى الإصباح . والمعنى : إذا عدت إلى أهلى ، فسروا من عودتى إليهم ، وسررت بلقائهم ، فإنى لاأزال منغصا لفراق ابن العميد: لأنى رأيت بابن العميد رجلا لم ير هؤلاء مثله ، لأنه لا نظير له فى الدنيا ، ولا يغرنك قولنا هذا فى بيان البيت ؛ فالوصول إليه عويص . أكثر الشراح من الأخذ والرد فيه .

ولا نطيل بذكر شذوذ المتنبي فى هذا الباب فهو أمر شغل الناس طويلا فى غير جدوى إلا حل رموز ، وتفسير رطانة .

حقيقة المتنبى

وبعد فهل كان المتنبي إلا شاعرا له محاسنه ومساويه ، فأما ما كان وما يكون حوله من دعاوى وخصومات ، فذلك شىء جسّمه الوهم وبالغ فيه ، لما كان عليه المتنبي من شذوذ فى أطواره كلها . والناس قديما متعلقون بالغرائب ، مندفعون وراء العجائب ؛ فهم إذا سمعوا بمخلوق شاذ الخلقة حجوا إليه. وبذلوا الجهد فى تطلع طلعه ، وبحثوا عن أصله وفرعه ، فلولا ما سمعناه عن المتنبي من كبره على ضيوفه ، وشموخه بأنفه على قصاد حضرته ، حتى يتخذ مجلسه أعلى من مجالسهم ، ولا يرد سلاما على قادم أو منصرف منهم ، لولا ذلك وأمثاله ما عنانا المتنبي أكثر من غيره من الشعراء ، وآية ذلك أنك ترى أكثر الحديث عنه يدور حول غرابته ، وأنواع شذوذه .

حكى لى صديق ، قال : إنه كان يوما ما من صرعى الإعجاب برجل شاذ ، هو طالب . قضى عشر سنوات أو تزيد فى أربع فرق دراسية ، وكان على كثرة الرسوب

والسقوط شامخ الأنف ، مصعر الخد ، ناظرا فى عطفيه ، قال صاحبى : وكنت أنا أحد هذه الطبقات التى مرت بهذا الطالب ، فملكتنى صلابة هذا الرسابة (إن صحت هذه الصيغة) وكنت أتفرس فيه ، وأتعرف مأتى هذه الصفاقة ، التى جعلته ضحوكا مستهينا بهذا الإخفاق ، كأنما شغله معنى أسمى من النجاح ، وغاية أكبر من نيل الشهادة فكنت (بنوع من البله) أكبر فيه هذا المعنى ، وهذا الغرض الذى بدا لى أنه تعلق به ، وأقيس نفسى إليه فأجدنى متهما نفسى بالتقصير ، عاضا أصابع الندم ، لأنى خرجت من امتحان الحساب مثلا ولم أحل جميع مسائله ، وربما كان الذى فاتنى مسألة أو بعض مسألة ، على حين يترك صاحبنا ورقة الإجابة بيضاء ، ويخرج يفتل شاربه ، ويسير فى حوش المدرسة ، كأنه حضرة الناظر ، حين يتمشى معجبا بآثار نظامه ، وإحكام ترتيبه ، قال صاحبى : خرجت من المدرسة ، وخرج غيرى من الطبقات العشر التى مرت بهذه الصخرة الصماء ؛ وكنا نجلس على بعض القهوات ، حول هذا الراسب الذى لا يذوب ولا ينحل كبره ، وكأننا نحن الراسبون وهو الناجح ، نجلس كما يجلس خلق الله . أما هو فيتصدر المجلس ، ولا يزال يحتج على سخونة الماء ، ورداءة البن ، ويستدعى صاحب القهوة وعمال المقصف والندل ، كأنما هو أمير من الأمراء ، سمح بجلس على قهوة فى باب الخلق يوما ما ، والسر العجيب أن كان هؤلاء يصيخون لإشارته ، ويجيبون نداءه ، وربما طلبت أنا كوب الماء ، أو فنجانة القهوة التى سأدفع فيها قرشا مثل قرشه ، فلا يجاب طلبى إلا بعد حين ، وبعد طول إلحاح ، وإذا جلسنا حول هذا الأخ فإنه يستسيغ أن يحجب وجهه عن جليسه بصحيفة يقرؤها الساعة والساعتين ، لا يهتم أن يحيى صاحبه القادم عليه بكلمة ، أو يرد على خطابه ولو بإشارة ، وإذا فرغ من الصحف ظل ناظرا فى السماء ، كأنما ركب رأسه خطأ ، فكان ذقنه فى حذاء جمجمته عرضا ، وأما شفته السفلى (وقد صيرها مشفرا بما أطال من مطها) فقد برزت نحو إصبعين عن شفته العليا ، فهو دائما مبوز ، وقد بلغ من كبره أن كان تنفسه كله زفرات وشهقات ؛ فلا بد أن تسمع صوت نفسه خارجا وداخلا ، وصاعدا وهابطا .

قال صاحبى : لم يكن فى هذا المخلوق حسن يجذب إليه الإخوان ، ولا أدب

يجمع حوله الأخدان ، ولا شيء مما يروق الناس فى الناس، ولكنها الغرابة والشذوذ أسَرَاني حينا ، حتى فككت قيودهما عن نفسى ، وسئمت منظر هذا المخلوق ، ولكن غيرى لا يزال واقعا فى الأسر يجالسه ويتعلق به ، ويروى غرابته وأمثلة شذوذه معجبا ؛ لأنه لم يسأم بعدُ ذلك الشذوذ .

هذا شان الناس مع كل شاذ ، يجعلون العجب به فى موضع السخرية منه ، والالتفافَ حوله بدل الانصراف عنه .

وأقول : لو أن شعر المتنبي ألقي إلى خالى الذهن من أطواره وأحواله ، لكان حكم الناظر فيه ، أن المتنبي رجل من الناس ، وشاعر من الشعراء ، أجاد المدح أو بالغ فيه ، ووصف الحروب فأبدع فى وصفها ، وهجا فأمضّ وأفحش ، ولكنه تغزل فكبا ، ودل على خشونة وتنطع ، وله إلى جانب ذلك كثير من حوشية فى الألفاظ ، وتعقيد فى الأساليب .

هذا هو المتنبي ، ولكن الطبول التى قرعها لنفسه ، وردد الناس صداها فى عصره وبعده ، هى التى ألقت فى رُوع الناس أنه شاعر لا كالشعراء ، وإنسان لا كالأناسيّ .

محمود مصطفى